شرح

منظومة السَيْر إلى اللّه والدّار الآخرة

نظمها الشّيخ العلاّمة

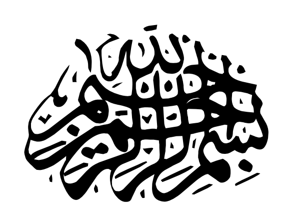
عبدالرّحمن بن ناصر السِّعدي

-رحمه اللّه تعالى-

علّقَ عليها فضيلة الشيخ

عبدالله بن مرعي بن بريك العدني

-حفظه اللّه تعالى-



الحمد للّه رب العالمين ،وأشهد أن لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له ،وأشهد أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسوله ،صلّى اللّه عليه وعلى آلِهِ وصحبهِ وسلَّم ،أما بعد :

فبين أيدينا منظومة من منظومات الزُّهد لفضيلة الشّيخ العلاَّمة الفقيه الإمام عبدالرَّحمن بن ناصر السِّعدي –رحمه اللّه تعالى- ،وهي منظومة عظيمة في معناها على صِغر مبناها .

وقد ألَّفها –رحمه اللّه تعالى- وجمعها تذكيراً لنفسِه ولإخوانِه ،وسمّاها –رحمه اللّه تعالى- « السَّيْر إلى اللّه والدَّار الآخرة » ،وما أحوجنا في مثل هذا الزَمان أن نتذاكر مثل هذه المباحث العظيمة ،والحال –كما تعلمون- من ظهور الفتن ما ظهر منها وما بطن ،فتن الشَّهوات وفتن الشُّبُهات ،والمُسَلَّم من سلَّمهُ سبحانه وتعالى ،حتَّى صار الكثير ممَّن يسير في طريق الحق وأهلِه فضلاً عن غيرهم تجرُّهُ وتتخطَّفُهُ بعض هذه الفِتن ،فينسى ما خلقه اللّه –عز وجلّ- لأجله ،وما –كذلك- هو قادمٌ عليه وما هو حال المؤمن حقيقة ،وأنَّهُ يسير إلى اللّه سبحانه وتعالى والدّار الآخرة ،وأنَّ الدُّنيا إنَّما هي دارُ ممَرّ لا دار مستقَرّ ،فلا مالٌ يشفع ولا ولدٌ يدفع ولا جاه –كذلك- يدفع إلاَّ من أتى اللّه سبحانه وتعالى بقلبٍ سليم .

وفي هذه المنظومة على اختصارها أصول السَيْر إلى اللّه سبحانه وتعالى ،وزاد السَّائِرين ،وقوت الرّاغبين فيما عند اللّه سبحانه وتعالى والدار الآخرة ،فهي على صِغر مبناها قد تضمَّنت معاني عظيمة وفوائِد جليلة ،فرحمه اللّه رحمة واسعة .

وقد ابتدأ هذه المنظومة –رحمه اللّه تعالى- بقولِهِ في أوَلِها :

سُعِدَ الَّذِينَ تَجَنَّبُوا سُبُلَ الرَّدَى *** وَتَيَمَّمُوا لِمَنَازِلِ الرُّضْوَانِ ،
فَهُمُ الَّذِينَ قَدَ اَخْلَصُوا[٣] فِي مَشْيِهِمْ *** مُتَشَرِّعِينَ بِشِرْعَةِ الْإِيمَانِ ،

ابتدأ –رحمه اللّه تعالى- هذا النَّظم بشروعِه في وصف حقيقَة السَّعادة التي ينالها هذا الإنسان في دُنياه وأخراه ،ومنبعها الذي يكون به بإذن اللّه تعالى من النّاجين ،ومن السُّعداء الموفَّقين في الدُّنيا وفي الآخرة .

وكما نرى ،أنَّهُ –رحمه اللّه- لم يذكُر بسملة في افتِتاح هذا النَّظم ،وفي بعض النُّسَخ ذُكرت بسملة لهذا النَّظم ،والمشهور الذي عليه أكثر النُّسَخ ليسَ فيه ذكر البسملة .

وقد اختلف العلماء في افتِتاح الشِّعر والنَّظم بالبسملة :

- **فمن أهل العلم من قال به .**
- **ومن أهل العلم من لم يقُل به .**

والأمر في هذا واسع ،فمن افتتحَ النَظم به ،أو الشّعر ،أو لم يفتَتِح ،وإن كان الذي عليه أكثر أهل العلم وهو الذي تقتضيه عمومات الأدلَّة التَّفريق بين النَّظم الذي يُقْصَد به ما عند اللّه سبحانه وتعالى ،والتّذكير بما هو من دين اللّه –جلّ وعلا- ،فيُسْتحبّ في مثله أن يُفتتح بذكر اسم اللّه سبحانه وتعالى ،لأنَّهُ قُربَة من القُرب .

وما لي ذلك ،فلا يُسْتحبّ أن يُستفتَح بشيء من البسملة خشية أن يكون في ذلك النَّظم ما لا يليق مع ذِكر اسم اللّه سبحانه وتعالى معه .

ولعلَّ هذا التَّفصيل هو الأولى على وجه الاختصار في هذه المسألة .

قولُهُ –رحمه اللّه :

سعِدَ الذين تجنَبوا سُبُلَ الرّدى وتيمّموا لمنازل الرِّضـــــــوان

يصِف –رحمه اللّه تعالى- من ينال السّعادة في هذه الدُّنيا وفي الدَّار الآخرة بأنَّهم الذين تجنَّبُوا سُبُلَ الرَّدى .

وسُبُلُ الرَدى كثيرَة ،والمقصود بها كلُّ ما يُردي هذا الإنسان ؛أي يُدخِلُ عليه سبب التَّرَدّي والسُّقوط في الدُّنيا وفي الآخرة ،من الكفر والشِّرك والنِّفاق والبدعة والمعصيَّة ،ولكلٍّ جنس من هذه الأجناس شياطين يدعون إلى هذا الرّدى ،فمن اجتنب الرَّدى وأهلَهُ فهو الذي ينالُ السَّعادة ،وقد أخبر النبيّ ﷺ أنَ للّه صراطاً مستقيماً في الدُّنيا ،من سلكَهُ سلكَ الطَّريق إلى اللّه –جلّ وعلا- ،فكان من النّاجين ،وهو بهذا -بإذن اللّه- من السُّعداء الموفَّقين ،وعلى جانبيْ هذا

الطَّريق والصِّراط سُبُل من سُبُل الشَّياطين ،على كلِّ سبيل شيطان يدعو على ذلك السَّبيل ،كما روى الإمام أحمد وغيرُه بإسنادٍ حسن ،عن عبدالله بن مسعود –رضي الله عنه- ،قال :« خطَّ رسول الله خطاً مستقيماً وخطوطاً عن يمينه وعن شمالِه وقال هذا صِراط الله وهذه سُبُل الشَّيْطان على كلِّ سبيل شيطان يدعو إليه » ثمَّ تلا النبيّ ﷺ قولُ الله –عز وجل- ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ﴾ [الأنعام: 153] **الآية** [1] **،فهذه سُبُل الرَّدى ،سُبُل الشَّياطين ،شياطين الجنّ والإنس ،أعداء الرُّسُل والرِّسالات ،وقد قال الله –عز وجل-** ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ ﴾[الأنعام: 112] **،فشياطين الجنّ والإنس بالشَّهوات والشُّبُهات يكونون سبب لتردِّي هذا الإنسان في دنياه وأخراه .**

ومن سقط في وحل هذا الرَدى خَسِرَ الدُّنيا والآخرة ،كونُهُ يكون مع أهل الشِّرك أو الكُفر أو النِّفاق أو أهل البدع والمعاصي ،فهو تردَّى مع هؤلاء المتردِّين .

ولا شكّ ،أنَّ هؤلاء لهم شبهات ،ولهم من الشَّهوات ما يكون سبباً في اتِّباع من يتَّبعُهُم ،وقد أخبرَ النبيّ ﷺ ،كما في [صحيح مسلم] ،عن أبي هريرة –رضي الله عنه- :« أنَّ النّار حُفَّت بالشَّهوات وأنَّ الجنَّة

1- رواه أحمد في [المسند (4142)] .

حُفَّت بالمكاره »[2] ابتلاء وامتحاناً من اللّه سبحانه وتعالى لهذا الإنسان ،لينظُرَ سبحانه وتعالى من يَصْبر على هذه المكاره بفِعل الطّاعات ،وأوّلُها التَّوحيد ولزوم السُنَّة ،وبترك المعاصي ،وأوّلُها الشِّرك والكُفر والنِّفاق والبدعة والمعصيَّة ،فمن صبرَ على ذلك وتلك المكاره كان –بإذن اللّه تعالى- من السُّعداء ،ومن لم يَصْبر فجرّتهُ هذه الدُّنيا ومن فيها من أهل الشُّبُهات والشَّهوات ،فهو –والعياذ باللّه- من أهل الرَّدى .

ثمَّ قال –رحمه اللّه- :« ... وتيمَّموا لمنازل الرِّضوان » :

« التيمُّم » :التوجُه ،أي توجَّهوا « لمنازل الرِّضوان » و« منازل الرِّضوان » -حسِّيَّة ومعنويَّة ؛فالمعنويَّة بلزوم طاعة اللّه واجتناب معصيَّة اللّه سبحانه وتعالى ،وبهذا يَصِل على منازل الرِّضوان في جنَّة اللّه سبحانه وتعالى في الدُّنيا وفي الآخرة ،في الدُّنيا بذوق حلاوة الإيمان ونور الطّاعة والتَّوحيد والسُنَّة ،وفي الآخرة بدخول دنَّة اللّه سبحانه وتعالى ورضْوانه ،فإنَّ للّه جنَّة في الدُّنيا من دخلها دخل جنَّة اللّه في الآخرة ،وإنَّ للّه ناراً في الدُّنيا من دخلها دخلَ نار الآخرة .

فجنَّة اللّه في الدُّنيا طريقُ الإيمان والتَوحيد والطّاعة والسُنَّة ،ونار الدُّنيا طريق الشِّرك والكُفر والنِّفاق والبدعة والمعصيَّة ،فمن لم يَصْبر على طاعة اللّه ولزوم سُنَّة رسول اللّه ﷺ فضعُفَ كان من أهل الرَّدى .

2- رواه مسلم في [صحيحه (7130)] عن أنس بن مالك .

وهذا معناه أنَّهُ –رحمه الله- يحُث من يريد السَّعادة أن يجتَنِبْ سُبُل الرَّدى ،ويُجاهِد نفسَهُ على ذلك ،وأن يتيَمَّم منازل الرِّضوان ؛أي يَحُثّ نفسَه ويشُدّ من هِمَتِه في الوصول إلى منازل الرضوان .

ولهذا أخبرَ النبيّ ﷺ أنَّ النّاس يوم القيامة يَسِيرون على الصِّراط على قدر سيرهم إلى اللّه سبحانه وتعالى في الدُّنيا ،ما جاء في [الصَّحيح] معناه عن عددٍ من الصَّحابة :« أنَ من النّاس من يمُرّ كالبرق ومنهم من يمُرُّ كالرِّيح ومنهم من يمُرُ كأجاويد الخيل والإبل ومنهم من يعدو عدوا ومنهم من يمشي مشيا ومنهم من يزحف زحفا ومنهم يُكردَسُ في نار جهنَّم » [3] والعياذ باللّه ،وما ذلك السَّيْر يوم القيامة إلاَّ بحسَبِ سير النَّاس في هذه الدُنيا ،فمن جاهد في اللّه وفي ذات اللّه سبحانه وتعالى بلزوم طاعة اللّه واجتناب معصيَة اللّه ،فكان من المسارعين والمسابقين ،فهو بإذن اللّه سبحانه وتعالى من المسارعين والمسابقين على ذلكم الصراط يوم القيامة .

انظروا إلى أبي بكر –رضي اللّه عنه- في يومٍ من أيّامه سأل النبي ﷺ سؤالاً بغير سابق إنذار :« من أصبح منكم اليوم صائماً ؟قال أبو بكر :أنا من زار وعاد منكم اليوم مريضاً ؟قال أبو بكر :أنا من تصدَّقَ منكم اليوم بصدقة ؟قال أبو بكر :أنا » [4] سأل عدَّة أسئِلة ،وبغير سابق إنذار ،فقال في كلّ سؤال يسأل نبيُّنا ﷺ ،يقول أبو بكر :« أنا » ،فبشَرَهُ النبيّ ﷺ بجنَّة اللّه ،انظروا إلى هذه المسابقة والمسارعة

3- رواه البخاري في [صحيحه (7439)] عن أبي سعيد الخدري .

4- رواه مسلم في [صحيحه (1028)] عن أبي هريرة .

،فهكذا ينبغي أن يكون حال المؤمن ،مُشَمِّراً في طاعة الله ،مسارعا إلى مرضاة الله ،فمن حَرِصَ وتوجَّهَ إلى منازل الرضوان واجتهد وعلِمَ أنَّ هذه الدُّنيا ليست دار مستقرّ ومقرّ ،ولكنَها دار ممَر ،فشمَّر عن ساعد ذي الجدّ في نفسِه وأهلِه وولدِه ،وعلِمَ أنَهُ جُهدٌ يسير أمام حياة باقيَة لا تفنى ،وعلمَ أنَّهُ تعبٌ محصور أمام –كذلك- حياة دائِمة فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذُنٌ سمِعت ولا خطرَ على قلبِ بشر ،فعند ذلك يهونُ ذاك التَّعَب ،ويزول ذاك الكسل ،فيَجدّ ويَجتَهد في ما يوصِلُهُ ويُوَجّهُه إلى طُرُق الرِّضوان من الله سبحانه وتعالى .

وأتبع –رحمه الله- بقوله :

فهم الذين قد أخلصُوا في مشيهم متشَرعين بشِرعَة الإيمـــــــان

هذان أصلان عظيمان ،لا يَصِحُّ عمل العاملين إلاَ بهما ،وهو من أعظم صفات أهل السَعادة ،أن جمعوا في سيرهم إلى الله واجتنابهم سبُل الرَّدى ،وتوجُّههم لمنال الرِّضوان بين « الإخلاص » و« المتابعة » ،فهما رُكنا كلّ عمل ،لا يَصِحّ عمل العاملين إلاَّ بهذين الرُكنيْن العظيمين « الإخلاص » و« المتابعة » .

فهم الذين قد أخلصُوا في مشيهم متشَرعين بشِرعَة الإيمـــــــان

فلا يَصحّ دينُ المرء إلاَّ به ،كما قال سبحانه ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: 5] ،وقال النبيّ ﷺ كما في حديث أبي هريرة ،عن نبيِّنا ،عن الله –عز وجلّ- أنَّهُ قال سبحانه وتعالى [5]: « من عمِلَ

5- رواه مسلم في [صحيحه (2985)] .

عملاً ولم يُرد بهِ وجه الله سبحانه وتعالى فإنَّ الله –عز وجلّ- يترُك عمل ذلك العامل وعملهُ له » كما صحَّت به السُّنَّة عن النبيّ ﷺ ،فمن أشرك في عمل من الأعمال غيرَ الله سبحانه وتعالى فقصَد غيرَ وجه الله ردَّ الله –عز وجلّ- عليه عملهُ له ،وسواء أكان الشّرك شركاً أكبر أو كان شركاً أصغر ،ومنه « الريّاء » بأن يُشرك النّاس في أعمال الله وأعمال الآخرة ،ومنه « العُجب » أن يُشرك نفسَهُ فيغتَرّ بعملِه ويعجب بعملِه ،فليسَ هذا من صِفة أهل السَّعادة .

ومن أصعب وأثقل الأشياء أن يُجاهد المرء نفسَهُ على الإخلاص ،وعلامة ذلك أن يستوي ثناء الناس وذمَّهم عنده ،فمن استوى ثناء الناس وذمَّهم ،فهو بإذن الله تعالى الموفَّقْ للإخلاص ،ومن حَرصَ على ثناء الناس والتفتَ إليه ،ففي إخلاص هذا المرء شائِبَة لا يصفو حتَى يدَع مثل هذا الالتفات فضلاً أن يخرُج بقولهِ وفعلِه ما يُنافي هذا الإخلاص .

ومواضِع ومنازل الإخلاص كثيرة ،فعلى المسلم أن يجتهد في طلبِ ما يوصِلُهُ إلى الله سبحانه وتعالى بصدق التعبُّد له في كلِّ قولٍ وفعل ،ظاهر وباطن ،وهذا هو حقيقة العبوديَّة للّه –عز وجلّ- ،فعند ذلك هو ينظُر دائِما إلى تقصيره ونقصِه ،وينظُر دائِماً على عظمَة ربِّه وخالِقِه ومولاه ،فإذا التفتَ إلى هذا المعنى لم يزَل يتَهم نفسَهُ بالتَّقْصِير وإن كان من المحسنين ،وهذه من أعظم صِفات أهل الإخلاص ،كما قال الله –عز وجل- ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ ﴾

[المؤمنون: 60] ،محسنون ،ومع ذلك هم وَجِلُون ،خائِفون من اللّه سبحانه وتعالى .

فإذن: لا تنشَغِل عينُهُ ولا أذنُهُ ،ولا قلبه ولا جوارحُه بمن حولَهُ من النّاس ،بل هو ينظُر إلى رضا اللّه سبحانه وتعالى وحده ،يلتَفِت دائِماً إلى ربِّه وخالقِه ،وهذه منزلَة أهل العبادة الحقيقيَّة الذين بلغوا أعلى مراتب هذا الدِّين ؛وهم المحسنون ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ۝١٢٨ ﴾ [النحل: 128] .

والإحسان أعلى مراتِب هذا الدِّين ؛أن تعبُد اللّه كأنَّك تراه ،فإن لم تكُن تراه فإنّه يراك ،وليسَ الوصل إلى تلك المنزلة بالأمر السَّهل ،بل يحتاج إلى صبر ومُصابرَة ،وجِدّ واجتِهاد ،حتَّى يُربِّي جوارحه وقلبَه وحياته كلُّها أن تكون للّه ربّ العالمين ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝١٦٣ ﴾ [الأنعام: 162-163] ،من كان هذا حالُه فإنَّهُ منشَغِلٌ بربِّه وخالِقِه سبحانه وتعالى ،يشغلُهُ ذلك عن كلِّ ما في هذه الدُّنيا .

وهكذا -كذلك- الرُّكن الآخر ؛وهو ركن « المتابعة » ،بقولِه -رحمه اللّه- : « متشَرعين بشِرعَةِ الإيمان » أي: ملتزمين بما جاء في شريعة هذا الدِّين ،وتفاصيل ذلك كثيرَة في نصوص الكتاب والسُّنَّة ،وقد قال -عليه الصَلاة والسَّلام- : « من عمِلَ عملاً ليسَ عليه أمرُنا فهو ردّ » ،وقال -عليه الصّلاة والسّلام- كذلك في حديث

عائِشَة : « من أحدثَ في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ » [6] فلا يكمُل عمل عامِل حتَى يتعبَد اللّه سبحانه وتعالى بما شرع ، ويُتابع ويلازم سُنَّة رسول اللّه ﷺ بما جاء بشريعة هذا الدِّين العظيم ، لأنَّ الإنسان قد يفعل الشيء ، يظُن أنَّهُ يصِلُ بذلك إلى رضوان اللّه فلا يكون كذلك ، فالنيَّة الحسنة والقصد الحسن لا يكفي في الوصل إلى رضوان اللّه سبحانه وتعالى ، فربّما تقرَّب إلى اللّه بالبدع والمعاصي ، ظنّا منه أنَّهُ يَصِل بذلك إلى رضوان اللّه سبحانه وتعالى ، ولهذا كان من شرط قبول العمل تحقُّق مع الإخلاص « المتابعة » ، حتَّى لا نتعبَد اللّه بالبدع والخرافات والمعاصي ، كحال من ضلَّ من أهل الكتاب ، ومن ضلَّ من أهل الشِرك والكُفر ، فكان من عبادة المشركين التَّصْفير والتَّصفيق ، كما قال اللّه – عز وجلّ ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [الأنفال: 35] ، كان من عبادة المشركين أن يطوفوا بالبيت وهم عراة ! يظنّون أنَّهم بهذا تخلّوا عن ذنوبهم الحِسِّيَّة والمعنويَّة ، وأنهم بهذا يُرْضُون اللّه سبحانه وتعالى ، وهل رضِيَ اللّه بذلك ؟ لم يرضَ بذلك ، وغضب عليهم ، وأبغضهم لفعلِهم ذلك .

وهكذا – كذلك - « النَّصارى » ومن تشبَّه بهم ، تعبَدوا إلى اللّه بتلك الترانيم والأناشيد ، وغيرها ، وتَبعهُم على ذلك بعض الضُلاّل المسلمين ، ظنُوا أنَّهم يتقرَّبون إلى اللّه بذلك .

6- رواه مسلم في [صحيحه (1718)] وغيره .

وأعظم من هذا ،الشِّرك !الذي يفعلهُ الكثير من النّاس ،يظنون أنَّهم بهذا يتقرَّبُون إلى الله ،ولا يُتقرَب إلى اللّه إلاّ بما شرع ،ولا يصِل إلى منازل الرِّضوان إلاّ بلزوم شريعة اللّه سبحانه وتعالى ،كما قال سبحانه وتعالى ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ ﴾ [الأعراف: 3] .

وبه نعرف –كما تقدَّم- أن النيَّة الحسنة وحدها لا تكفي في السَّلامة والنَّجاة والوصول إلى السَّعادة في الدُنيا والآخرة ،بل لا بدّ مع الإخلاص من متابعة .

وبه نعرف أنَ أهل الضَّلال قد يكون بعضهم من أهل الإخلاص ،عندهم إخلاص لكن ما عندهم متابعة ،وهم بهذا من أهل النّار ،ومن أهل الخسارة في الدُنيا وفي الآخرة ،لأنَّ ذلك الإخلاص لم يكن معهُ متابعة ،ولو دمعت العيون ،ولو كثُرت الطّاعات ،إذا كان على غير متابعة لشريعة الله فهو خاسر ،قال اللّه –عز وجلّ- عن بعض أهل الكتاب ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ۝٣ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ۝٤ ﴾ [الغاشية: 2-4] **والعياذ باللّه !**

- **قال عبدالرَّحمن السِّعدي :**

فَهُــمُ الّـذِيـــنَ بَنَــوْا مَنَـــازِلَ سَـــيْرِهِمْ *** بَـــيْنَ الرَّجَـــا والخَـــوْفِ لِلـدَّيَّـــانِ.

وهذه صِفة أخرى من صفات أهل السَعادة؛ أنَهم بنوا منازل السَّيْر، وفي هذا إشارة إلى أنَّ السَّيْر إلى اللّه سبحانه وتعالى منازل كمنازل المسافرين يقطعونه شوطاً شوطاً ومرحلة مرحلة ومنزلة منزلة، وقد ألّفَ بعض العلماء كتاباً عظيماً سمّاه « منازل السَّائِرين »، وقد اختصَرَهُ وهذَبَهُ الإمام ابن القيم –رحمه اللّه تعالى- في كتابه العظيم الذي هو « مدارج السَالكين » بيَّنَ فيه منازل السَّائِرين في حال أهل ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ﴾ [الفاتحة: 5]**، فالسّائِرون إلى اللّه لهم منازل ينزلُون بها منزلاً منزلاً، يُحققُون فيها مقامات العبوديَة، وخِصال الإيمان، حتَى يَصِلُون إلى رضوان اللّه سبحانه وتعالى في الدُنيا وفي الآخرة، ومن ذلك ما أشار إليه –رحمه اللّه- ههنا أنَّهُ بنوا هذه المنازل على هذين الأصليْن العظيميْن؛ الجمع بين « الرَّجا » و« الخوف »، فهما للسَائِرين إلى اللّه كجناحيْ طائِر، لا يطير الطائِر بجناحٍ واحد، بل لا بدّ من جناحيْن، فكذلك من يسير إلى اللّه سبحانه وتعالى لا بد أن يجمع بين « الرَّجا » و« الخوف »، فبدون رجا يحصُل ما يحصُل من هلكَة هذا الإنسان، فإذا غلّب الخوف حصل له القنوط من رحمة اللّه إلاّ القوم الكافرون، فابن آدم مهما حرصَ على الكمال، لا بدّ له من نقص وتقصير « وكلّ ابن آدم خطّاء وخيرُ الخطّائِين هم التوّابون »، فلا بدّ أن يجمع مع الخوف الرَجا؛ يرجو رحمة اللّه، ويتذكَر عظيم سعَة رحمتِه، فهو القائِل –جلّ وعلا-** ﴿ ۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ ﴾ [الزمر: 53]**، وكما –كذلك- لا يجوز له أن يترُك الرَّجا، كذلك لا يُغلبِ الرّجا ويترُك الخوف، لأنَّ**

تغليب الرَجا مع ترك الخوف يوقِعُهُ في الاسترسال في الذنوب والمعاصي وموت القلب ،فكما أنَّ اللّه –عز وجل- غفور رحيم ،فهو كذلك شديد العقاب ،فلا تتعلَّق برحمة اللّه وترجو ما عند اللّه على حساب استرسالك في ذنوبك ومعاصيك ،لكن احرصْ على عدم الخطأ والتَّقْصِير ،ولزوم الطّاعة واجتناب المعصيَّة ،وإذا حصل منك شيء من التَّقْصِير فلا تقنط من رحمة اللّه ،واعلم أنَ لك رباًّ غفوراً رحيماً يقبل توبَة التائِبين ،فأكثِر من الاستِغفار والتَّوبة بلسان الحال والمقال ،فيُعينك ذلك على إصلاح حالِك .

وكما قال الإمام ابن القيّم –رحمه اللّه- « إنَّ ممّا كان من حكمة اللّه سبحانه وتعالى أنَ الذَّنب الذي يُذنب به ابن آدم سببٌ لتحقُّق كمال عبوديَّة الربّ لربه وخالِقِه » [7] ،لأنَّ هذا الإنسان إذا كان لا يُذنب ربَّما اغترَّ بطاعاتِه ،واغترَّ بإحسانِه ،ولكن من حِكمة اللّه سبحانه وتعالى أن جعلَهُ يَقَع في بعض الذُّنوب والمعاصي التي تكون سبباً في النَّظر إلى نفسه بعين الحقيقة ،أنَهُ ضعيفٌ وفقيرٌ إلى اللّه سبحانه وتعالى ،وأنَّهُ يحتاج إلى تجديد إيمانِه ،فيزيدُه حُباً لربِّه وخالِقِه وتقرُّباً منه واستمساكاً لدينِه وشرعِه ،فيتذكّر دائِماً قول اللّه –عز وجلّ-

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ١٧ ﴾ [فاطر: 15-17]

،ولذلك فهو دائِماً بين الرَّجا والخوف .

7- انظر [كتاب الفوائد (صـ86)] .

وقال العلماء: هذا هو الأصل، وفي مواضِع ينبغي أن يُغلِّب جانب الرَّجا على الخوف، من هذه المواضِع: عند موت الإنسان، كما صحَّ عن النبيّ ﷺ في أحاديث كثيرَة حثّ المسلم على حُسن الظنّ بربِّه وخالقِه عند موتِه، فهو عند ظنِّ عبده به سبحانه وتعالى، فأحسِن الظنّ بربِّك وخالقِك حتَّى يتوفّاك اللّه -عز وجلّ- وأنت راضٍ عنه وهو راضٍ عنك -جلّ وعلا- .

ولا يعني ذلك أنَّك تُهمِل الإحسان في حياتك وتتعلَّق بالرَّجا، لا! ولكن تُحسِن وتُحسِن وتُحسِن، وإذا وقعت منك إساءة فتذكَّر أنَّ لك رباً عظيماً يغفِر الذُّنوب، ويتجاوز عنها سبحانه وتعالى .

- قال عبدالرَّحمن السِّعدي :

هُــمُ الَّـذِيــنَ مَــلَا ٱلْإِلَـٰــهُ قُلُــوبَهُمْ *** بِـــــوِدَادِهِ وَمَحَبَّـــــةِ الـرَّحْـمَـــــٰنِ

من صِفاتِهم -كذلك- : من صفات أهل السَّعادة أنَ اللّه -عز وجلّ- ملأ قُلُوبهم بودِه سبحانه وتعالى ومحبَّتِه، فظهر ذلك في أعمالِهم وحياتِهم، فإذا تعلَّقَ قلبُ العبد بربِّه وخالقِه مودَّةً وحُباً تحقَّقت العبوديَّة الحقيقيَة للّه، لأنَّ حقيقَة العبوديَة هي غاية الحبّ والخضوع والحبّ للّه -عز وجلّ- ، كما قال الإمام ابن القيِّم -رحمه اللّه تعالى- [8] :

8- انظر [الكافية الشافيّة في الانتصار للفرقة النّاجية] المعروفة بـ« نونية ابن القيّم » .

وعبادة الرّحمن غاية حُبِّه　　　مع ذلّ عابده هما قطبان

بالأمر قال الله قال رسوله　　　لا بالهوى والنّفس والشَّيْطان

فكلَّما كمُلَت محبَّة الربّ سبحانه وتعالى في قلب العبد ،ظهر ذلك في قولِه وفعلِه وحياتِه وَسَيْرِهِ إلى ربِّه وخالقِه سبحانه وتعالى ،وعند ذلك تجدُهُ لا يشبَع من طاعة الله –عز وجلّ- ولزوم منازل ومواضِع رضوانِه سبحانه وتعالى .

وكما قال بعض السَلَف ،وذكره الإمام ابن القيِّم –رحمه الله- ،قال :« لو كمُلت محبَّة الربّ في قلب العبد لم يشبَع من طاعتِه لربِّه وخالقِه ،حتَّى أنَهُ لو سجد لم يشأ أن يرفَع رأسه لقُربه من ربه وخالقِه » .

العبد الحقيقي يستشعِر قُربَه من الله كلَّما سجد للّه سبحانه وتعالى سجدة ،فيَجد في هذا السُّجود من الحلاوة واللَذَّة بكمال حُبِّه وتودُّدِه لربّه وخالقِه ،فأقرب ما يكون العبد من ربه وخالقِه وهو ساجد ،كما صحَّ عن النبيّ ﷺ .

وإذا كان كذلك ،فمن باب أولى أنَهُ من أبعد النّاس عن معاصي الله وأسباب سخطِه ،ومن أبعد النّاس عمّا يُغضِب الله سبحانه وتعالى عليه ،والله –عز وجلّ- قد وصف المؤمنين الكاملين في إيمانِهم بهذه الصِفة ،بقولِه سبحانه وتعالى عمَّن تولّى وارتدَّ عن دين الله ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: 54] ،فأكمل المؤمنين إيماناً أكملُهم حبّاً للّه سبحانه وتعالى ،والله –عز وجلّ- يُحِبّ هؤلاء لتحقُّق حُبِّهم له

،فعند ذلك يتركون كلَّ ما يرد على قلوبهم فضلاً عن جوارحهم طلباً في مرضاة اللّه سبحانه وتعالى .

- **قال** عبدالرَّحمن السِّعدي :

وَهُمُ الَّذِينَ قَدْ أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِهِ *** فِي السِّرِّ وَالإِعْلَانِ وَالأَحْيَانِ

كذلك ،من صفاتِهم أنهم أكثَروا من ذِكر اللّه سبحانه وتعالى بلسان الحال ولِسان المقال ،لأنَّه –كما تقدَّم- أحبُّوا اللّه فصدقوا في حُبِّه ووداده ،فأكثروا من ذكر من يُحِبّ ،لأنَّ الذي يُحبّ شيئاً يكثُرُ ذكره في قلبه وفي لسانه ،هذا علامة الحبّ ؛أنت تُحبّ شيء يظهر هذا الحبّ بذكرك له بلِسانك وبمكانه في قلبك ،ومن أحبَّ اللّه الحب الحقيقي ظهرَ ذلك في لِسانه وفي قلبه وفي جوارحه ،ولهذا وصفَ اللّه –عز وجلّ- المؤمنين الذين كمُلَ إيمانهم بهذا الوصف ،كما صحَّ عن النبيّ ﷺ في حديث أبي موسى في [الصَّحيح] :« مثلُ الذي يذكُر ربَّه والذي لا يذكُر ربَّه كمَثَل الحيّ والميّت » [9] ،فالحيّ هو الذي تحققت فيه حياة الإيمان ههنا ،وعلامة ذلك أنَّهُ يذكُر ربَّه سبحانه وتعالى ،ومن لم يذكُر ربَّه سبحانه وتعالى ،لا بلسان الحال ولا بلسان المقال فهو ميت ولو كان يسير في الدُّنيا مع الأحياء .

9- رواه البخاري في [صحيحه (6407)] .

ولهذا كان الكافر والفاجر من أبعد النّاس من ذِكر ربِّه سبحانه وتعالى ،لا بلسان المقال ولا بلسان الحال .

وذِكرُ اللّه سبحانه وتعالى ثلاثة أنواع :

1- ذِكرٌ باللِّسان ،بأن تذكره بأنواع الذكر المقيَّد والمطلق .

فمن « المقيَّد » أذكار الصَباح والمساء ،وأذكار أدبار الصَّلوات ،وأذكار الدُّخول والخروج ،وأذكار النَّوم .

ومن « المطلق » أنواع الذِّكر ؛كالتّسبيح ،والاستغفار ،والتَّهليل ،والتَّكبير ،وغيره من أنواع الذِّكر .

وفي حديث أبي هريرَة ،ومعناه من حديث الأغرّ ،أنَّ النبيّ ﷺ كان يُحصى له في المجلس الواحد أكثر من سبعين استغفار[10] ،وفي رواية أكثر من مائة استغفار[11] .

وفي « السُّنن » عن عبداللّه بن عمر بإسناد صحيح ،أنَّ النبيّ ﷺ كان يُكثِر أن يقول :« ربِّ اغفر لي وتُب عليَ إنَك أنت التوّاب الرَّحيم »[12] ،فأنت تذكر ربّك بأنواع الذِّكر ،المطلق والمقيَد ،لتُحقِق السَّعادة ،فإنَّ هذه من صفات أهل السَّعادة ،أكثِر من ذكر اللّه –عز وجلّ- بلسانِك .

10- أخرجه البخاري في [صحيحه (6307)] عن أبي هريرة .

11-رواه مسلم في [صحيحه (2702)] عن الأغرّ بن يسار المزني .

12- أخرجه أبو داود في [سننه (1516)] والترمذي في [سننه (3434)] وابن ماجة في [سننه (3814)].

2- وهكذا –كذلك- من مواضِع ذكر اللّه: « ذكر اللّه –عز وجلّ- بجوارحك »: فإنَّ الصَّلاة من ذكر اللّه، قال اللّه –عز وجلّ- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة: 9]، سمَّى « الصَّلاة » والخُطبة ذِكر اللّه .

و« العلم » من ذكر اللّه، وكلّ الطّاعات من ذكر اللّه، فاحرصْ على ذلك اللّه، بلسان الحال، لا تبخل على نفسِك بصلاة ولا بصيام ولا بصدقة، فكلُّه من ذكر اللّه سبحانه وتعالى .

حتَّى ما تحتَسِبهُ من تربيَّة أبناءك، ومن حُسن معاملتِك لزوجتِك فهو من ذكر اللّه، لأنَّك تتذكَّر اللّه الذي جعل لك شريعة في هذه المواضِع، في معاملتِك لزوجتِك، في معاملتِك لأولادِك، في معاملتِك لجيرانِك، في برِّك لوالديْك، في إحسانِك للخلق أجمعين، فكلّ ذلك من ذكر اللّه سبحانه وتعالى .

3- ومن مواضع ذكر اللّه –ثالثاً- « ذِكر اللّه سبحانه وتعالى بالقلب »: أن يكون قلبُك مليئاً بذكر اللّه سبحانه وتعالى، تُعظِّمُه وتُقَدِّمُه، وتُحبُّه وتُجلُّه، حتّى يملأ قلبك هذا الذّكر، فعند ذلك لا يُزاحمُه شيء من أمر الدُّنيا، ومن ذلك أن يتحقَق من التَّوحيد، ومن التوكُّل على اللّه سبحانه وتعالى ما تكون باللّه قوياً ولو كان أهل الأرض كلُّهم ضِدَّك ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ ﴾ [النحل: 120] بماذا؟ باللّه سبحانه وتعالى، قوي .

وكما جاء في حديث ابن عبّاس: « واعلَم أنَّ الأمّة إذا اجتمعَت على أن يضُرُوك بشيءٍ فلن يضُرُّوك إلاَ بشيءٍ كتبهُ الله عليك » (13) **،هل يُمكن أن يقَع هذا عند كافِر؟ لا يمكن ،هل يمكن أن يقع هذا عند فاجِر؟ لا يمكن ،هل يُمكن أن يقع هذا عند من ضَعُفَ إيمانه وكثُرَت معاصيه؟ الجواب: لا ! لأنَّهُ وُكِلَ إلى نفسِه فكان ضعيفاً .**

وأما من امتلأ قلبُهُ بذكر الله فهو القوي بالله سبحانه وتعالى ،انظروا إلى موسى -عليه الصّلاة والسَّلام- ،الماء أمامه والعدوّ خلفه ،ويقول من معه ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ ﴾ [الشعراء: 61] **،فقال قولة القوي الواثِق بربِّه ،من ملأ الله بذكره فيقول** ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٦٢ ﴾ [الشعراء: 62] **،وهذه الكلمات ،وفي مثل هذه المواضع العصيبة تُنبئُ عن حقيقة امتلاء الإيمان في هؤلاء الأنبياء والرُّسُل -عليهم الصّلاة والسَّلام- ،والله -عز وجلّ- قال** ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ [الأنعام: 90] **،فلنا في رسُل الله -عليهم الصّلاة والسَّلام- قُدوة حسنة ،وقال الله -عز وجلّ-** ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ۝٢١ ﴾ [الأحزاب: 21] .

فكذلك ،من علامات أهل السّعادة أن يَحرصْ على ذكر الله بِلِسانِه وبجوارحه وبقلبه ،وفي السِر والعلن والأحيان (يعني: في جميع الأحيان) .

13- أخرجه الترمذي في [سننه (2516)] .

- **قال** عبدالرَّحمن السِّعدي :

يَتَقَرَّبُــونَ إِلَــى الْمَلِيــكِ بِفِعْلِهِــمْ *** طَـاعَـاتِـــهِ وَالتَّـــرْكِ لِلْعِصْـــيَانِ

هذه صِفاتٌ أخرى من صِفات السَّائِرين إلى اللّه والدّار الآخرة ،صِفات أهل السَّعادة الذين ذكرهُم في أوَّل بيت في هذه المنظومة .

وقد ذكر –كما مرَ معنا- عدداً من صِفات هؤلاء أهل السَعادة الذين تجنَّبُوا سُبُل الرَّدى وتيَمَّمُوا منازل الرِّضوان ،ومن هذه الصِّفات أنَّهم « يتقرَّبُون إلى المليك بفعلِهم » أي إلى اللّه سبحانه وتعالى ،يتقرَّبون إليه بفِعلِهم « طاعاته والتَّركِ للعِصْيان » ومعناه أنَّ من صِفاتِهم حِرصِهم على طاعة الربّ المليك (أي :الملِك سبحانه وتعالى) مبالغة في المُلك ،فهو له ملكوت السَّموات والأرض وكلّ شيء –جلّ وعلا- ،فهم يتقرَّبُون إليه سبحانه وتعالى بفِعل الطَّاعات وترك المعاصي والسيِّئات ،ومن كان هذا وصفه نال السَّعادة في الدُّنيا والآخرة .

ولهذا كان من علامة ولاية الربّ –جلّ وعلا- لعبدِه ،وتحقُّق عبُوديَّة الربّ لخالقِه أن يكون هذا وصفُه ،كما قال النبي ﷺ في حديث أبي هريرة في [الصَّحيح] ،وهو حديثٌ قُدسي ،أنَّ اللّه –عز وجلّ- يقول :« من عادى لي وليّاً فقد آذنتُه بالحرب » الحديث ،إلى أن قال :« وما تقرَّبَ إليَّ عبدي بشيء أحبُّ إليّ ممّا افترضتُه عليه ولا يزال عبدي يتقرَبُ

إليّ بالنَّوافِل حتّى أُحبَّه فإذا أحببتُه كنتُ سمعُه الذي أسمع به وبصرُه الذي يُبصِرُ به ويدهُ التي يَبْطِشُ بها ورجلُهُ التي يمشي بها »

الحديث [14] .

وفي هذا دليل على أنَّ رضا الربّ سبحانه وتعالى ومحبَة الربّ سبحانه وتعالى يُتوصَّل إليها بالتقرُّب إليه بفِعل طاعاتِه واجتِناب معاصيه والسيِّئات .

وأعظم ما يُتقرَّب إلى الله من الطّاعات « الفرائِض » ،ولهذا قدَّم ذِكرُها في الحديث القُدسي .

فإذن ،من صفات أهل السَّعادة السَّائِرين إلى الله والدّار الآخرة حرصُهُم على الطاعات ،وأعظم الطّاعات حِرصاً « الفرائِض » ،ومن كان حريصاً على الفرائِض وفَّقَهُ الله على طاعات النَّوافِل ،ومن فرَّط في الفرائِض فرَّط في النَّوافِل .

إذا رأيت الرَّجل يُحافِظ على الصَّلوات الخمس ،يُحافِظ على صلاة الفجر ،يُبَكِر إليها ،فهي علامة على أنَّهُ بإذن الله تعالى موفَّق لفِعل النَّوافِل ،وموفَّق لفِعل سائِر الطّاعات ،وإذا رأيتهُ يُفرِّط في هذه الفرائِض ،مُضَيِّع لها ،مُفرِّط فيها ،فاعلم أنَّها علامة على تفريطِهِ لغيرها من الطّاعات والنَّوافِل ،لأنَّهُ لا يُتقرَّب إلى الله بشيء أحبّ إليه ممّا افترضَهُ عليه ،وإذا حرصَ على ذلك وفَّقَهُ الله لغيره ،وغذا لم يَحرِصْ على ذلك حرَمهُ الله غيرَه .

14- أخرجه البخاري [في صحيحه (6502)] .

وكما أنَّها علامة، فهي –كذلك- مكرَمة منه سبحانه وتعالى، فلذلك من أراد السَّعادة والصِّدق في سيْره إلى اللّه والدّار الآخرة فليَحرصْ على فِعل الطّاعات وترك المعاصي والسيِّئات، وإذا لم يفعل ذلك ابتلاه اللّه -عز وجلّ- بخسارة الدُنيا والآخرة، والذُلّ في الدُّنيا والآخرة، قال النبي ﷺ: « وجُعِلَ الذُلُ والصغار على من خالف أمري » رواه أحمد وغيرُه، من حديث عبداللّه بن عمر بإسناد صحيح [15] .

بل أخبرَ اللّه –عز وجلّ- عن أهل السَّبْت كيف جعلَ اللّه –عز وجلّ- لهم الذِلَّة بما كان من معصيَّة اللّه سبحانه وتعالى ، وهذه سُنَّة اللّه سبحانه وتعالى في أهل معصيَّتِه، والجزاء من جنس العمل، فالعزَّة إنَّما هي بطاعة اللّه، وبالحِرص على اجتِناب معصيَّة اللّه، والذِلَّة بخلاف ذلك .

- قال عبدالرَّحمن السِّعدي :

فِعْـــلَ الفَـــرَائِضِ وَالنَّوَافِـــلِ دَأْبُهُـــمْ	***	مَـــعْ رُؤْيَـــةِ التَّقْصِـــيرِ وَالنُّقْصَـــانِ

كذلك، من صِفاتهم –وهو تبَع لما سبق- حِرصُهم على الفرائِضْ والنَّوافِل .

« **دأبُهم** » يعني صار خُلُقاً وسَجيَّةً لهم؛ حِرصُهُم على الفرائِضْ وإكثارُهم من النَّوافِل، ومع ذلك فهم يرَون أنفُسَهُم مُقصِّرين، وهذا ما

15- رواه أحمد في [المسند (5115)] .

أخبرَ الله –عز وجلّ- به عن الصالحين من عباده ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: 60] **لأنَّ هذا يمنع من العُجب والغُرور، لا يزال العبد ينظُر إلى تقصيره ونَقْصِه وعظَمة ربِّهِ وخالقِه فيدعوه ذلك إلى الإكثار من الطّاعات والزيّادة في الإحسان ونوافِل المستحبّات، ومع ذلك فهو يتَّهم نفسَه بالتَّقصير والنُّقْصان، حتّى لا يغتَرّ بعمل، ولا يَعجب فيُبْطِل على نفسِه أعمالَهُ الصَّالِحة، وهذا من كمال عُبُوديَّتِهم للّه سبحانه وتعالى .**

- **قال عبدالرَّحمن السِّعدي :**

صَبَرُوا النَّفُوسَ عَلَى المَكَارِهِ كُلِّهَا *** شَوْقاً إلَى مَا فِيهِ مِنْ إِحْسَانِ

ومن صفاتِهم –كذلك- أنَّهم حقَّقُوا منزلة الصَّبر، والصَّبر ثلاثة أقسام :

1- **صبرٌ على طاعة اللّه .**
2- **وصبرٌ عن معصيَّة اللّه .**
3- **وصبرٌ على أقدار اللّه سبحانه وتعالى .**

ومن حقَّق ذلك فقد حقّق نصف الدِّين، فنصف الدِّين ونصف الإيمان صبرٌ، كما أنَّ نصفَهُ شُكرٌ، كما جاء معناه في حديث النبي ﷺ الذي رواه الإمام مسلم وغيرُه من حديث صُهيْب، قال –عليه الصَّلاة والسَلام-

:« عجباً لأمر المؤمن إن أصابتهُ سرّاء شكرَ فكان خيراً له وإن أصابتهُ ضرّاء صبرَ فكان خيراً له وليسَ ذلك إلاّ للمؤمن » [16] .

فالمؤمن من جمع بين « الصَّبر » و« الشُكر » ،فبالصَّبر يُعان على فِعل الطّاعات وترك المعاصي والسيِّئات ،والصَّبر على أقدار اللّه المؤلِمات .

وبالشُّكر يتحقَّق له أعلى مقامات الطاعات ،ويكون له ما يكون من النَّجاة من سائِر الموبقات ،ولهذا وصفَ اللّه –عز وجلّ- أهل كرامتِه بأنَّهم اعتبرُوا بهذين الوصفين العظيمين ،قال اللّه –عز وجلّ- ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [لقمان: 31] ،فرأس الشُّكر التَّوحيد ،ورأس الصَبر ترك إجابة داعي الهوى من الشِّرك والبدعة والمعصيَّة ،فمن حقَق ذلك حقَّق الإيمان كلَّهُ ،فصحَّ بذلك أنَّ الإيمان –كما قال العلماء- نِصفُهُ صبرٌ ونِصْفُهُ شُكر .

وذكر الإمام أحمد –رحمه اللّه تعالى- أنَّ الصَّبر ذُكِرَ في القرآن في أكثر من تسعين موضِعاً [17] ،وهو واجب بإجماع الأمَّة ،وهو نصف الإيمان ،وصحَّ عن النبي ﷺ أنَ « الصَّبر ضِياء » [18] ،والأحاديث في هذا الباب كثيرة .

16- أخرجه مسلم في [صحيحه (2999)] .

17- ذكره ابن القيم في [مدارج السّالكين (552/2)] .

18- رواه مسلم في [صحيحه (223)] وغيره عن أبي مالك الأشعري .

فإذا استوفى المؤمن خِصال الصَّبر فقد استكمل نِصْف الإيمان ،وإذا أتى معهُ بالنِّصْف الآخر وهو الشُّكر -وهو ما سيأتي ذِكرُه إن شاء الله- حقَق بذلك الإيمان كلَّهُ –كما سيأتي إن شاء الله ذِكره- .

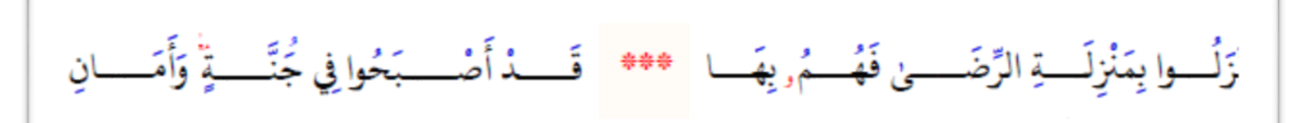
ومن الصَبر على طاعة الله الصَبر –أوَّلاً- في الوصول إليها ،وفي عملِها ،واستِكمال واجباتِها ،وشروطِها ،وأركانِها ،بل ومستحبَّاتِها ،ومكمِّلاتِها ،بل –وكذلك- الصَّبر على طاعة الله في أن يُداوم عليها ،وأن يتقبَلَهُ الله –عز وجلّ- منه بتحقيق كلّ ما طُلبَ منه تحقيقُه ،واجتِناب كل ما طُلِبَ منه اجتنابُه ممّا يُنافي العمل الصَّالِح ؛من الإخلاص والصِّدق ،وعدم الرِّياء ،وغير ذلك ،كلّ هذا يحتاج إلى صبر .

فحتّى تُؤدِّي طاعة واحدة يحتاج منك منازل كثيرَة من منازل الصَبْر ،ومثله –كذلك- قُل في المعصيَّة ،حتى يُجنِّبَك الله –عز وجل- إيّاها فأنت تحتاج إلى صبر في شهوة نفسِك ،وفي شهوَة جوارحك ،وفي –كذلك- مجاهدة نفسِك أن لا تجرَّك هذه الشَّهوات والذُّنوب والسيِّئات ،فلا تزال مجاهداً ،وعند ذلك يتحقَّق لك أعلى منازل الصَّابرين ،والله –عز وجل- قال ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠ ﴾ [الزمر: 10] لماذا ؟لأنَهم لا يزالون في صبرٍ ومُصابرة ،حياتهم كلَّها صبر ومُصابرَة ؛صبرٌ على طاعة الله ،وصبرٌ عن معصيَة الله ،وصبرٌ على أقدار الله سبحانه وتعالى .

ولهذا كان من أعظم صِفات المؤمنين الصَّادقين تحقيقهم لهذه الصِفَة ؛صِفَة الصَبر .

وقد ذكر اللّه –عز وجلّ- الصَبْر في مواضع كثيرة من تأمَّلها ودقَّق النَّظر فيها استيْقَنَ إلى عظيمِ منزلتها –كما ذكر الإمام أحمد رحمه اللّه- ذُكِرَت في أكثر من ستِّين موضِعاً .

- قال عبدالرَّحمن السِّعديِ :



نَزَلُوا بِمَنْزِلَةِ الرِّضَى فَهُمُ بِهَا *** قَدْ أَصْبَحُوا فِي جُنَّةٍ وَأَمَانِ

ومنزلة الرِّضا منزلة من منازل الصَّبر ،فالصَّبر على أقدار اللّه أربعة أقسام ،النّاس فيه على أقسامٍ أربعة :

1- ساخِط ،وهو الخاسر .
2- وصابر ،وهو المأجور غير المأزور .
3- وراضي ،وهو من زاد مع أجر الصَّبر أجر الرضا .
4- وشاكِر ،وهي أعلى منازل الصَابرين .

فمثلاً :لو ابتُلِيَ الإنسان بمُصِيبَة ،فتسَّخط بلسانِه قضاء اللّه وقدره ،أو ضرب الخدود وشقّ الجيوب ،وحثى التُّراب ،وصفع وتكلَّم ،لصارَ من الساخطين الآثمين .

وإن كظَمَ غيْظَهُ ،وألمَهُ فصبَرَ ،فلم يحصُل منه ما يُغضِب الربّ سبحانه وتعالى ،لا بقول ولا بفِعل ولا بحال ،فهو قد أدَّى ما أوجبَ اللّه –عز وجلّ- عليه ،ويُؤجر على هذا الصَبر .

فإذا تعدَّى هذه المنزلة بشيءٍ أكثر منه ؛وهو أن حقَّقَ هذا الوصف للصَّبْر وزاد معهُ رضا القلب والجوارح بما اختارَهُ اللّه له ،عَلِمَ عِلمَ اليقين أنَّ ما اختارهُ اللّه له خيرٌ ممّا يختارهُ لنفسِه ،زاد مع أجر الصَّبر أجر الرِّضا ،وهي منزلَة أعلى من منزلة الصَّبر .

ومن زاد على هاتين المنزلتين منزلة « الشُّكر » ،ليسَ فقط صبرَ ،ولا –كذلك- رَضِيَ ،بل زاد على ذلك أن شكر ربَّهُ سبحانه وتعالى على لُطفِ القضاء .

يُصاب الإنسان بمصيبَة ،مثلاً ؛يُصِيبُهُ حادث ،تَنقَلِب به سيَّارتُه ،فيَخرُجَ من سيَارتِه ،ويَخِرُّ للّه –عز وجلّ- ساجداً ،شاكراً للّه –عز وجلّ- على لُطفِ قضائِه في مُصابه ،فهو لم يتسَخَّط ،وهو –كذلك- صَبَر ،وزاد على هذا الصَّبْر أن رَضِيَ ،وزاد على هذا الرِّضا أن شكرَ بقلبه وبلِسانِه وبجوارحِه ،فسجدَ للّه شاكِراً على لُطفِ القضاء ،وهي من أعلى منازل الصَّبر « منزلة الشُّكر » .

- **قال** عبدالرَّحمن السِّعدي :

شُكْرُوا الَّذِي أَوْلَى الخَلَائِقَ فَضْلَهُ *** بِالقَلْبِ وَالأَقْوَالِ وَالأَرْكَانِ.

وهذه منزلَة من منازل الصَّبر ؛أعلى منازل الصَّبر « الشُّكر » ،وهي – كذلك- منزلَة من منازل الدِين والإيمان ،فهي باعتِبار آحاد الصّبر تُعتبَر أعلى منازل الصَّبر ،وباعتِبار وصفِها منزلَة من منازل الدِّين ،ومعنى من معاني الإيمان ،فهو نِصفُ الإيمان ،لأنَّ الإيمان –كما تقدَّم معنا-

نِصْفُه صبرٌ ،ونصفُه شُكر ،فبالشُّكر يُؤدِي ما أنعمَ اللّه –عز وجلّ- عليه من الطّاعات والنِّعَم ،وسائِر المِنَن فيما يُحبُّه اللّه سبحانه وتعالى ويرضاه ،فهو شاكرٌ لربِّه سبحانه وتعالى :

1- أوّلاً :على ما افترضه عليه من طاعات .
2- وعلى ما وفَّقَهُ اللّه من تركِ السيِّئات .
3- وعلى ما لطَفَ به فيما قدَرَ عليه من أنواع البلاء والمُلِمّات .

ومن استوعبَ خصال الشُّكر في هذه الأحوال الثَّلاثة ،فقد استكمَلَ خِصال الإيمان ،وهو في نفس الوقت شكرَ اللّه بقلبه لصِدق اعترافِه بعظيم حق ربه وخالقِه عليه ،وفقره وضعفِه ونَقْصِه ،لأنَّ العبد إذا نظرَ إلى نقص نفسِه علِمَ أنَ نفسَهُ النَّاقِصَة تستَحِقّ عُقُوبَة من اللّه ،فإذا جاءت العقوبة أقل ممّا كان يخافهُ ،كان شاكراً للّه سبحانه وتعالى .

وهذا لا يتحقَّق إلاَ من كمُلت عُبُودِيَتُه للّه سبحانه وتعالى ،لماذا ؟لأنَّهُ لا يزال ينظُر إلى نفسِه بنظر النَّقْص ،وينظُر إلى ربِّهِ وخالقه بنظَر العَظَمَة والإجلال ،وعظيم الحقّ ،فهو بذلك لا يزال يجتَهد في الخير ،ويتَّهِم نفسَه بالنَّقْص ،ويخاف أن يبتَلِيَهُ اللّه بما كان من نقْصه ،فإذا ابتلاه اللّه –عز وجلّ- بشيء شكر اللّه على لُطفِ قضائِه ،فهو ينظُر دائِماً لنفسِه بالنَّقْص ،وإلى ربِّه سبحانه وتعالى بالإكرام والمنَة والفضل سبحانه وتعالى ،لأنَّهُ إن أعطى أعطى بفَضْلِه ،وإن حرمَ وعاقبَ حرمَ وعاقبَ بعدلِه سبحانه وتعالى ،وهو الرَّحيم الكريم –جلّ وعلا-

،فيتحقَّق ذلك بقَلبه ،أي « الشُكر » ،ويتحقق بلسانِه ،ويتحقَّق بجوارحه :

- بقلبه :بكمال عُبُوديَتِه لربِّه بتحقُّق هذا الإقرار ،وتحقيق معنى العبُوديَّة بالنَّظر إلى عظمة ربِّه ،ونقص نفسِه ،ولا يزال يَتدرَّج في هذه المنازل حتَّى تتحقَّق كمالُ العُبوديَة للّه .

- وبلسانِه :بكثرَة الثَّناء على اللّه بما هو أهلُه ،والتحدُّثْ بما أنعم اللّه –عز وجلّ- عليه من مِنَنِه ،فلا يزال يشْكُر ربّهُ سبحانه وتعالى ،سواء شُكر المِنَة على وجه الخصوص أو العموم ،فإذا أنعمَ عليه بنِعَم خاصَّة شكرَهُ عليها ،أو نعَم عامَّة شكرهُ عليها ،فلا يزال يشكُر ربَّهُ سبحانه وتعالى .

وإذا كان قد قال النبي ﷺ :« من لم يشْكُر النّاس لم يشْكُر اللّه » [19] فكيفَ بما كان من عظيم نِعمة اللّه سبحانه وتعالى ،وهو القائِل ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ﴾ [النحل: 53] ؟

- وهكذا –كذلك- بالجوارح :بأن يكفُّها عن معصيَّة اللّه ،ويَسْتَعِينُ بها على طاعة اللّه ،ويُوَجِّهُها في أبواب مرضاتِه سبحانه وتعالى ،فعند ذلك يُحَقِّق هذه المنزلَة العظيمة من منازل هذا الدِّين ،ومراتِب هذا الإيمان .

19-أخرجه الترمذي في [السّنن (1955)] ،وأحمد في [المسند (1180)] .

- **قال** عبدالرَّحمن السِّعدي :

صَـحِبُوا التَّوَكُّـل فِي جَمِيـعِ أُمُورِهِـمْ	***	مَـعَ بَـذْلِ جُهْـدٍ فِي رِضَـى الرَّحْمَــنِ
عَبَـدُوا ٱلْإِلَـٰـهَ عَلَـىٰ ٱعْتِقَـادِ حُضُـورِهِ	***	فَتَبَــوَّؤُوا فِي مَــنْزِلِ الْإِحْسَــانِ

وهذه –كذلك- صِفاتٌ أخرى من صِفات السَّائرين إلى الله والدّار الآخرة ،صِفات أهل السَّعادة ،أنَّهم صحِبُوا التوكُّل في جميع أمورهم .

وحقيقة التوكُّل هو الاعتِماد على الله –عز وجلّ- ثقةً به ،ولهذا فإنَّ المؤمن يُبرهِن إيمانه ويُصَدِّق إسلامه بهذا التوكُّل ،كما قال الله –عز وجلّ- ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣ ﴾ [المائدة: 23] **،وكما قال سبحانه وتعالى** ﴿ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤ ﴾ [يونس: 84] .

فعلامة الإيمان وبُرهان الإسلام تحقيق التوكُّل على الله سبحانه وتعالى في جميع الأمور ،ولهذا قال من رُسُل الله وأتباعِهم الصَّالحين ،كما أخبر الله –عز وجلّ- عنهم ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ ﴾ [إبراهيم: 12] .

ولا يتمّ التوكُل إلاّ بثلاثة أمور :

1- **الأمر الأوَل :معرفة الله –عز وجلّ- في ربوبيَّتِه ،وألوهيَّتِه**

،وأسمائِه وصِفاتِه ،فمن لم يعرف ربَّهُ سبحانه وتعالى معرفةً علميَّة وعمليَّة لا يَصِحّ منه التوكُّل .

ولهذا كما قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة –رحمه الله- ،قال :« لا يَصِحُ توكُّل من فيلسوف ولا مُعَطِل » [20] ،وهكذا –كذلك- من باب أولى لا مشرك ولا كافر ،وإنَّما يَصِحُّ التوكُّل من المؤمن الذي تحقَّقَت معرفتُه لربِّه وخالقِه سبحانه وتعالى معرفةً علميّة ومعرفةً عمليَّة ،فلكمال علمِه بربه وخالقِه سبحانه وتعالى في ربوبيَّته وألوهيَّتِه وأسمائِه وصفاتِه ،توكَّلَ عليه سبحانه وحده ولم يتوكَّل على غيره ،وتعلَّقَ به سبحانه وتعالى وحده ولم يتعلَّق بغيره ،والتفتَ إليه وحده ولم يلتَفِت إلى غيره .

ومن هذا :قول النبيّ ﷺ في حديث ابن عبّاس في وصيَّتِه العظيمة :« واعلَم أنَّ الأمَّة لو اجتمعت على أن ينفعُوك بشيءٍ فلن ينفعوك إلاَّ بشيء قد كتَبَهُ اللّه لك واعلم أنَّ الأمَّة لو اجتمعت على أن يضُرُّوك بشيء فلن يضُرُّوك إلاَّ بشيء قد كتبَهُ اللّه عليك » .

وهذا لا يصِحّ إلاَّ ممَّن عرف الله حقّ المعرفة ،فتوكَّلَ عليه ولم يتوكَّل على غيره ،ولم يلتَفِت لغيره .

2- والأمر الثّاني مّا لا يَصِحّ التوكُّل إلاَ به :أن يعتَمِد على مسبِّب الأسباب لا الأسباب ،ويظهر الفرق أنَّ المتوكِّل على اللّه حقاًّ وصِدقاً لا يُبالي بإقبال الأسباب وإدبارها ،فإذا أقبلَت الأسباب أو أدبرَت فهو لا يتأثَّر ولا يجزع ولا يخاف ،لأنَّهُ واثِق بربِّه سبحانه وتعالى ،كما أخبرَ اللّه –عز وجلّ- عن عددٍ من أنبيائِه ورُسُلِه –عليهم الصَّلاة والسَّلام-

---

20- نقله عنه تلميذه ابن القيّم ،انظر [مدارج السّالكين (391/2)] .

وهم أئمَّة المتوكِّلين ،كيف أنَّهم لم يُبالوا بإقبال الأسباب وإدبارها لأنَّهم تعلَّقوا بالله –عز وجلّ- مُسَبِّب الأسباب ،كما في حديث ابن عباس في [البخاري] وغيره ،قال :« حسبُنا الله ونِعم الوكيل قال إبراهيم حين أُلقِيَ في النّار وقالها محمَّد ﷺ حين قال له النّاس إنَ الناس قد جمعوا لكم » [21] .

إبراهيم حين أُلقِيَ في النّار لم يجزَع ،ما قال :« تخلَفَت عنِّي كلّ أسباب النّجاة » بل قال :« حسبي الله ونِعمَ الوكيل » فجعل الله –عز وجلّ- النّار برداً وسلاماً .

وهكذا ،نبيُّنا ﷺ في غزوة أُحُد وقد كُسِرَت رُباعِيَّته وشُجَّ رأسُه ودخلت وجنتا المغفَر في وجهه –عليه الصَّلاة والسلام- وأُدمِي ،وقُتِلَ من قُتِلَ من أصحابه ،وهم في تلك الجراحات ،قال لهم القائل :« إنَّ النّاس قد جمعوا لكم » يعني :قُريش راجعون وعائدو الكرَّة ،وأنتم على هذا الحال ،فماذا قال –عليه الصَلاة والسَّلام- ؟ما قال :« تخلَّفَت عنّا الأسباب وأدبرَت » بل قال :« حسبِيَ الله ونِعم الوكيل » ،توكَّلَ على الله حقّ التوكُّل ،لم يُبال بإقبال الأسباب وإدبارها ،فقذفَ الله في قلوب المشركين الرُعب ،وولوا مدبرين خائِفين هاربين إلى مكَّة مع ما وقع في يوم أُحد ،نصرٌ من الله سبحانه وتعالى .

وهكذا –كذلك- موسى –عليه الصَلاة والسَّلام- ،فرَّ من فِرعون وقومِه ،فإذا بالماء أمامه والجُند خلفَه ،فقال بعض من مع موسى ﴿ إِنَّا

21- رواه البخاري في [صحيحه (4563)] .

لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء: 61] ،**لم يقل :« انقطَعَت الأسباب » ولكن لم يُبال بإقبال الأسباب وإدبارها ،قال قولةَ الواثِق بربِّه سبحانه وتعالى** ﴿ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء: 62] ،**فأوحى الله –عز وجلّ- إليه أن يضرب بعصاه البحر** ﴿ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الشعراء: 63] **،وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن ؛واثِق بربِّه سبحانه وتعالى .**

وثبتَ في [الصّحيح] في قِصّة الرَّجل الذي استلّ السَّيْف من فوقِ شجرة ،كان النبي ﷺ مستظِلاً تحتها ،فأخذ السَّيْف وأخرجهُ مصلتاً ،ورفعهُ على النبيّ ﷺ ،وقال :« من يحميك منِّي يا محمَّد ؟ » لم يُبال النبي ﷺ بإدبار الأسباب لِثقَتِه بربِّه سبحانه وتعالى ،فقال قولةَ الواثِق بربِّه –جلّ وعلا- وهو في غايَة الاطمئنان والرُّسُوخ والهدوء والاستِقرار :« الله » مدَ بها صوتَه وكررَها ثلاثاً « الله الله الله » حتَى ارتعدَ الرَجل وسقط السَّيْفُ من يدِه ،فأخذهُ النبي ﷺ فقال :« من يحميك مني ؟ » فسكتَ الأعرابي وطلبَ العفو ،فعفا عنه النبيّ ﷺ وتركهُ ولم يمسَهُ شيئاً ،وكان سبباً في إسلامِه وإسلامِ قومِه [22] **.**

وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن ،وكلَّما كمُلَ المؤمن في إيمانِه كمُلَ توكُّلَهُ ،وقويَ بربِهِ سبحانه وتعالى حتّى كان له من الإيمان والتوكُّل أقوى من الجبال الرّاسيات ،ولهذا كلَّما كمُلَ المرء علماً ومعرفةً بالله سبحانه وتعالى وعملاً كمُلَ إيماناً وتوكُّلاً ،كما كان

22- رواه البخاري في [صحيحه (2910)] عن جابر بن عبدالله .

الإمام ابن القيم –رحمه الله- يقول :« كان إذا اشتد بنا الأمور لجأنا إلى شيخ الإسلام ابن تيميَّة –رحمه الله تعالى- » [23] لكمال علمِه وعملِه وإيمانِه وتوكُّلِه بربِّه وخالقِه سبحانه وتعالى .

وهكذا النبي ﷺ كان –كذلك- ملجأ الصَّحابة –رضي الله عنهم- عند اشتداد الأمور ،يتقوَّونَ بقُوَّة إيمانه وعظيم توكُلِه بربه وخالقه سبحانه وتعالى .

3- والأمر الثّالث ممّا لا يتِمّ التوكُل إلاّ به :أن يعمل بالأسباب ،فإنَ من تمام التوكُل الأخذ بالأسباب ،ليس معنى التوكُّل هو التواكُل ،فالنبيّ ﷺ والأنبياء والرُّسُل من قبله أئِمَّة المتوكِّلين ،ومع ذلك أخذوا لأسفارهم ولغزواتِهم الزّاد والرّاحلَة والمتاع والسِّلاح ،وأردفَ النبيّ ﷺ على نفسِهِ الدِّرْع في بعض غزواتِه ،ولبسَ المِغفَر على رأسِه ،واتَّخذَ سيفاً وركِبَ فرساً ،واتخذَ زاداً وراحلةً –عليه الصَلاة والسَّلام- وهو إمام المتوكِّلين .

فلذلك قال من قال من العلماء –كما دلَّت عليه نصوص الكتاب والسُنَّة- :« فرقٌ ما بين التوكُّل والتَّواكُل الأخذ بالأسباب » ،فلا يصِحُ توكُّل إلاَّ بالأخذ بالأسباب ،ومع أخذهِ بالسَّبَب فلا يعتَمِد عليه ،بل يعتَمِد على الله سبحانه وتعالى القوي الذي هو على كلّ شيء قدير ،فإذا أدبرَت الأسباب أو تخلَّفَت لم يُبال ،وعَلِم أنَّ له رباًّ عظيماً هو على

23- انظر [الوابل الصيّب (صـ48)] .

كلِّ شيءٍ قدير الذي أوجدَ الأسباب قادرٌ على أن يوجِدُها من دون تلك الأسباب ،وهو على كلّ شيءٍ قدير .

وقولِه –رحمه اللّه تعالى- :« مع بذْل جهْد في رضى الرَّحمن » يعني :مع حُصُول هذا التوكُّل الذي صاحبَهُم فهم يبذلون الجُهد في رضى الرَّحمن ،وهذا ما تقدَمَ من أنَّ التوكُل لا يتِم إلاَّ بالعمل بالأسباب ،فالجنَّة جعلَ اللّه –عز وجلّ- لها سبباً ،من أعظمِ أسبابها الحِرصْ على العلم النّافِع والعمل الصَّالِح ،ولهذا قال سبحانه وتعالى ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٢ ﴾ [الزخرف: 72] ،جعلَ لها سبباً .

وهكذا –كذلك- أمور الدُّنيا ،جعل اللّه –عز وجلّ- لكلِّ شيءٍ سبب يُتوَصَّل إليه به ،وإنَّما سُمِّيَ « السَّبب » سبباً لأنَّهُ يوصِل إلى المقصود .

فمن أعظم صفات السَّائرين إلى اللّه مصاحبتُهم للتوكُّل في جميع أمورهم ؛يعني الدِّينيَّة والدُّنيويَّة ،والظّاهرة والباطنة ،فهم متوكِّلون على اللّه مُفَوِّضُون أمرَهم إليه سبحانه وتعالى .

وهناك تفاصيل ومسائِل دقيقة ولطيفة في التوكُّل بسَطها العلماء في مواضع وكُتُب أوسع ،ولعلَّ في هذه الإشارات كِفايَة .

- قال عبدالرَّحمن السِّعدي :

عبدوا الإله على اعتقادِ حضورِه *** فتبوّؤوا في منزل الإحسان

يعني ؛ومن صفات السائِرين إلى اللّه والدّار الآخرة أهل السَّعادة أنَّهم حرصُوا على تحقيق العُبوديَة للّه سبحانه وتعالى على أعلى مراتِب هذه العُبوديَة ؛وهي مرتبة « الإحسان » ،فللدِّين ثلاثة مراتِب :

1- مرتبة الإسلام .
2- ومرتبَة الإيمان .
3- ومرتبَة الإحسان .

فأمّا مرتبة « الإسلام » فالإتيان بالأعمال الظّاهرة ،وأمّا رتبة « الإيمان » فالإتيان بالأعمال الظّاهرة مع –كذلك- الأعمال الباطنة .

فللإسلام أركاناً خمسة كما جاء في حديث جبريل ،وللإيمان أركاناً ستَّة .

ومرتبة « الإحسان » هي أعلى هذه المراتب ؛أن يُكمِل تلك الأعمال الظّاهرة والأعمال الباطنة بحُسْن المراقبَة والحضور للربّ سبحانه وتعالى ،ولهذا قال في « حديث جبريل » في حديث أبي هريرَة في [الصَّحيحين] في قصَة جبريل حين أتى يُعلِّم النّاس دينَهُم [24] ،وفي [مسلم] من حديث ابن عمر ،عن أبيه عمر ،لما سأله عن الإحسان قال :« أن تعبُدَ اللّه كأنَّك تراه فإن لم تكُن تراه فإنَّهُ يراك » [25] ،فهو تحقيق معنى المراقبَة والمعيَّة للربّ سبحانه وتعالى ،فهو لا يزال ولم يَزَل يرى ويُشاهِد مراقبَة الربّ سبحانه وتعالى ،فيَكمُل في إحسانِه بعبُوديَتِه لربِّه وخالقِه سبحانه وتعالى .

24- رواه البخاري في [صحيحه (50)] ،ومسلم في [صحيحه (9)] .
25- رواه مسلم في [صحيحه (8)] .

يُضرَب مثل ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ **:لو كان أحدٌ يُراقِبُك في عملٍ تعملُه له ألا تستحي أن تخرِم من هذا العمل شيئاً ؟الجواب :بلى ،فكيف واللّه –عز وجل- العظيم** ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ ﴾[الشعراء: 218-219] **لا تنفكّ عنهُ لحظة عيْن ولا أدنى من ذلك ،وهو القائِل –جلّ وعلا-** ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ﴾[المجادلة: 7] **،وهو القائِل سبحانه وتعالى** ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾[غافر: 19] **حتّى ما في صدرك يعلمُه اللّه سبحانه وتعالى ،بل قال اللّه –عز وجلّ-** ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾[طه: 7] **،إذا كان في قلبك سرّ وهناك ما هو أخفى من السِرّ ،كما قال بعض العلماء :« هو الهمّ » الذي حتّى القلب لم يَطّلِع عليه ،فاللّه قد علِمَه ولم يخفى عليه منه شيء ،فمن تحقّقَت عنده هذه المعيَّة وحصَلَ له هذا الحضور ،لا شكّ أنّهُ سيُحسِن في عبادتِه ،ومن أحسَن في عبادتِه أحسَنَ اللّه –عز وجلّ- إليه غايَة الإحسان ،ولهذا كانت معيَّتُهُ الخاصَّة ورعايتُه وكلاءتُه ونُصْرَتُه وتأييده لأهل هذه المعيَّة الخاصَّة :أهل الإحسان ،كما قال سبحانه وتعالى** ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[النحل: 128] **،فهؤلاء لهم معيَّة خاصَّة ،ولهم تأييد خاص ،ونصر خاصّ في الدّنيا و-كذلك- في الدّار الآخرة .**

وقد ذكر اللّه –عز وجلّ- أهل هذه المراتب الثلاثة في قولِه سبحانه وتعالى ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم

مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ [فاطر: 32]، **فهؤلاء هم أهل المراتِب الثَّلاثة في هذا الدِّين .**

فإنَّ أهل الإسلام الظّاهر قد تختَرمُهم بعض المظالِم ، وأهل الإيمان من اقتصَد ولكنّه لم يَسْبق بالخيرات ، وأهل الإحسان لكمال عبوديَّتِهم ولتحقُّق مراقبَتِهم سابقُوا بالخيرات في السِرّ والعلَن ، ولهذا قال من قال عن بعض الأئِمَّة والسَلف : « أنَهُ لو أُخبرَ أنَّهُ يموت غداً لما زادَ من عملِه شيئاً » لماذا ؟ لأنَهُ أصلاً يُراقِب الله كلّ يوم ولحظة وحين ، فهو لم يزَل ولا يزال يُحسِن ويَحرِصْ على كمال الإحسان ، فلو قيل له : « تموت غداً » ما زادَ من عملِه شيء لاستيفاء تحقيقِه لعُبوديّتِه لربِّه سبحانه وتعالى .

- **قال** عبدالرَّحمن السِّعدي :

نصَحُوا الخليقةَ في رِضَى محبوبِهِمْ	***	بِالعِلْمِ وَالإِرْشَادِ وَالإِحسانِ
صَحِبُوا الخَلائِقَ بِالجُسُومِ وَإِنَّمَا	***	أَرْوَاحُهُمْ في مَنْزِلٍ فَوْقَانِي

وهذه – كذلك - من صفات أهل السَّعادة السَّائِرين إلى اللّه والدّار الآخرة ؛ أنَّهم مع قيامِهم بحقِّ أنفسِهم لخالِقهم وربِّهم سبحانه وتعالى قاموا بما يجبْ من حقّ عليهم على الخلق ، وأعظم هذه الحقوق « النُّصْح » ، وهو من أعظم أسباب النَّجاة من الخسارة ، قال اللّه – عز وجلّ - ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾ ﴾ [العصر: 1-3]، **فالرُّكن الثَّالِثْ من أركان النّجاة من الخسارة « التَّواصي**

بالحقّ » وهو النُّصْح للخلق ،ولهذا قال النبيّ ﷺ :« الدِّين النَّصِيحة » كما في حديث أبي رُقَيَّة تميم بن أوس الدّاري في [مسلم] [26] ،وفي رواية خارج [صحيح الإمام مسلم] كرَّرها ثلاثاً « الدِّين النَّصِيحة الدِّين النَّصِيحة الدِّين النَّصِيحة » أي :كاد أن يكون الدِّين في النَّصِيحة ،وهو -كما قال العلماء- :« الرُّكن السَّادس من أركان الإسلام » ،فقد قرنه الله –عز وجلّ- بأركان الإسلام في مواضِع ،ومنه قول الله –عز وجلّ- ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [التوبة: 71] ،فقدَّمَ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر الذي هو من النُّصْح والتَّواصِي على إقام الصَّلاة ،ولهذا سماه من سمّاه من أهل العلم بأنَّهُ « الرّكن السَّادس من أركان الإسلام » .

فمن صفات أهل السَّعادة والسّائِرين إلى الله أنَّهم أهل نُصْح للخلق ،وهذا النّصح في رضا ربِّهم ومحبوبهم وخالِقِهم سبحانه وتعالى .

ولهذا كان من أعظم صفات أهل الحقّ أنّهم أرحم النّاس بالخلق وألزمهم بالحقّ ،ومن رحمتِهم بالخلق حِرصُهم على نصحهم لهم ،كما قال –عليه الصَّلاة والسَّلام- :« لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ لأخيه ما يُحبّ لنفسِه » ،بل قال اللّه –عز وجلّ- ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ ﴾ [النساء: 94] ،أنت يوماً من الأيام كنت ضالاًّ فهداك الله ،كنت مخطئاً فوفَّقك اللّه ،كنت جاهلاً فعلَّمك الله ،فتذكَّر نعمة الله عليك وابذِلها لغيرك .

26- رواه مسلم في [صحيحه (55)] .

ولهذا كانت في هذه الخِصال الأربع التي هي من أسباب نجاة الإنسان من الخسارة في هذه السُّورة العظيمة التي قال عنها الإمام الشَّافِعي: « لو تدبَّر النّاس هذه السُّورة لكفَتْهُم » [27] **.**

وقولُه –رحمه الله-: « في رضى محبوبهم »؛ أي أنَّ هذه النَّصِيحة ليست تشَفِّياً، ولا تعالِياً، ولا ترفُّعاً، ولا عُجْباً، ولا غُرُوراً، ولكن في رضى الربّ المحبوب سبحانه وتعالى .

وهذا يقتضي من الرِّفق، والحكمة، والرَّحمة ما يحصُل به المقصود من هذه النَّصِيحة .

وقولُه: « بالعِلم والإرشاد والإحسان » كذلك، تأكيد لهذا المعنى من أنَّ النَّصِيحة تكون بوسائِلها وضوابطها الشَّرْعِيَّة المعروفة، والتي أجملَ الإشارة إليها بهذه الكلمات الثَّلاث :

1- **العلم .**
2- **والإرشاد .**
3- **والإحسان .**

فبالعلم يزول الجهل، وبالإرشاد الذي فيه إشارة إلى الرِّفْق يزول ردّ الحقّ، وبالإحسان يكون مدعاة لقبولِ هذا الحقّ .

ولهذا كان النبيّ ﷺ من أصول نُصْحِهِ للنّاس حِرْصُهُ على العِلم والإرشاد والإحسان؛ فكان يَبْذِل كلّ ما يملِك في هِدايَة الخلق –

27- نقلها عنه غير واحد من أهل العلم كابن تيمية في [مجموع الفتاوى (152/28)]، وابن كثير في [تفسيره (203/1)] .

عليه الصَّلاة والسَّلام- ،وهذا معروف لمن تتبَّع سيرَتهُ –عليه الصَّلاة والسَّلام- .

وقوله :« صَحِبُوا الخلائِق بالجُسُومِ وإنَّما أرواحُهم في منزلِ فوقاني » معناه :من صِفاتِهم أنَّ أجسادهم مع النّاس وقُلوبُهم مع اللّه سبحانه وتعالى ،فـ« أرواحهم في منزلِ فوقاني » هِمَمُهُم عاليَة ،ومقاصِدُهُم رَفِيعَة ،وإن أجسادهم في الأرض مع النّاس ؛

ولذلك ،فهم يعيشون حياةً لا كحياة النّاس ،همُّهم ومطلبُهم هو رضا اللّه سبحانه وتعالى .

فعند ذلك يتحقَّق من التعلُّق باللّه ،والالتفات إليه وتحقيق ما يَجِبْ من حَقِّه ما لا يُعارضُه شيءٌ ممّا عليه حال النّاس ،فلا تُشْغِلهُ دنيا فانِيَة ،ولا شهوة زائِلَة ،ولا تؤثِّر فيه شُبْهَة عارضَة لتعلُّقِه بهذا المنزل الفوقانِي .

وهذا هو حقيقَة الزّهد ؛فحقيقة الزُّهد والتعلُّق باللّه سبحانه وتعالى هو أن يكون هِمَّة العبد عاليَة في طلب ما عند اللّه سبحانه وتعالى العظيم ،وأن يترفَّع عن كلّ ما في الدُّنيا من أمرٍ وضِيع ،فهو من باب أولى يبتعِد عن الوقوع في القاذورات من الذُّنوب والمعاصِي والسيِّئات ،وهو من باب أولى يترفَّع عن ظلمِ المخلوقين ،وعلى أن يُنافِسُهم ويزاحِمهم في دنيا فانِية حقيرة ،ساقطة ،بل يبذِل الدّنيا كلَّها في طلب ما عند اللّه سبحانه وتعالى ،لأنَّ هِمَّتَهُم عاليَة .

والأمرُ كما قال النبي ﷺ في الحديث المشهور الصَّحيح :« ما لي وللدُّنيا إنَّما أنا كرجُلٍ » وفي رواية :« كراكبٍ استظلَّ تحت شجرة

ثمَّ تركها » حديث ابن مسعود المشهور الذي رواه أحمد والترمذي وغيرُه بإسناد حسن ؛دخل عبداللّه بن مسعود على النبيّ ﷺ وهو نائِمٌ على حصير أثّر على جسدِه ،فقال له :« يا رسول اللّه لو أمرتنا أن نبسِط لك ونعمل لك » فقال –عليه الصّلاة والسّلام- :« ما لي وللدُّنيا إنّما أنا كرجلٍ » أو قال :« كراكبٍ استظلَّ تحت شجرةٍ ثمَّ تركها » [28] .

وفي روايةٍ عند [ابن حبّان] وغيره بإسنادٍ صحيح –كذلك- عن ابن عبّاس ،أنَّ عمر –رضي اللّه عنه- دخل على النبيّ ﷺ وقد أثَّرَ الحصير على ظهره ،فقال :« يا رسول اللّه لو اتَّخذتَ فِراشاً أوثر من هذا » فقال النبي ﷺ :« ما لي وللدُّنيا إنَّما أنا كرجلٍ استظلَّ تحتَ شجرَةٍ ثمَّ تركها »أو قال :« كراكبٍ سائِرٍ في يومٍ صائِفٍ فاستظلَّ تحت شجرةٍ ثمَّ تركها » [29] .

وفي [البخاري] وغيره ،أنَّ النبي ﷺ أخذ بمنكب عبداللّه بن عمر ،وقال له :« كُن في الدُّنيا كأنَّك غريب أو عابر سبيل » [30] ،وفي روايةٍ خارج [الصحيح] في زيادة صحيحة حسَّنها بعض أهل العلم ؛منهم العلاّمة الألباني –رحمه اللّه- عند [أحمد] وغيره ،أنَّهُ قال له بعد قولِه :« أو عابر سبيل » قال :« وأعِدّ نفسَك من أهل القُبُور » [31] ؛يعني ؛احتَسِب نفسَك .

28- أخرجه الترمذي في [سننه)2377( ] عن عبداللّه بن مسعود .
29- رواه ابن حبان في [المجروحين (276/1)] .
30- رواه البخاري في [الصّحيح (6416)] .
31- رواه أحمد في [المسند (4750)] .

فكان ابن عمر يقول بعد هذا الحديث: « إذا أمسَيْتَ فلا تنتَظِرِ الصَّباح وإذا أصبَحْتَ فلا تنتَظِرِ المساء وخُذْ من صِحَّتِك لمرَضِك ومن حياتِك لموتِك » ، ومعناه: لا تُطِلِ الأمل !

وإذا كان هذا هو قاعدة المسلم في هذه الدُّنيا ، أنَّهُ كعابر سبيل ، أو كالغريب ، فحسْبُهُ أن يأخذ منه الشيء اليسير ؛ عابر السَّبيل والغريب ماذا يأخذ ؟ هل يأخذ الشيء الكثير الذي يُثْقِلُهُ ويُؤَخِّرُهُ في الرُّجوع إلى أهلِه ؟! الجواب: لا ، بل يأخذ شيء يسير يوصِلُهُ إلى أهلِه ، ولا يقطَع عنه سرعة الوصول إلى أهلِه .

وهذا الإنسان إنَّما مستقرُّهُ وأهلُهُ في جنَّة اللّه سبحانه وتعالى ، منها خرج وإليها يعود إن شاء إن أصلَح نفسَه ، فلذلك ، لا يجعل الدُّنيا دار مستقرّ وإنَّما هي دار ممَرّ ، وليُشَمِّر لدار المستقَرّ جنَّة اللّه سبحانه وتعالى .

وحالُ هذه الدُّنيا كما مثَّلَ النبيّ ﷺ كرجلٍ استظَلَّ في يومٍ صائِفٍ تحت شجرة ثمَّ تركها ، كما عسى أن يسْتَظِلّ الإنسان تحت الشَّجرة ؟ كنتَ يوماً من الأيّام رجلاً وها أنت شيخاً ويتوفّاك اللّه سبحانه وتعالى ، تذكَّر كم كانت تلك السَّنوات ، كانت كهذه اللَّحظات في استظلال رجلٍ تحتَ ظِلِّ شجرة ، ثمَّ تركها ، فما تبقى إلاَّ الحسرات لمن لم يُحْسِنِ أو النَّعيم والملذَّات لمن وفَّقَهُ اللّه –جلّ وعلا- للجِدّ والاجتِهاد والمثابرَة فيما عند اللّه سبحانه وتعالى .

وهذه صفة عظيمة من أعظم صفات السُّعداء السّائِرين إلى اللّه والدّار الآخرة ؛ ومن ذلك أنَّهم لا يُبالُون بما عليه النّاس ، لا يَزِنون أنفُسَهُم بما

عليه النّاس ،بل دائِما يَزنون أنفسَهم بما يُرْضِي اللّه سبحانه وتعالى ،كما قال –رحمه اللّه- :« أرواحُهم في منزلِ فوقاني » ،فهم لا يلتفتون لمن حولَهم ،لا تُحَدّثُك نفسُك كيف فلان وفلان ؟وماذا عند فلان وفلان ؟ولكن لتُحَدّثك نفسُك ماذا أعددتَ للّه –عز وجلّ- لأنَّك يوماً من الأيَّام ستَقِف بين يديْه ،كما في حديث عَدِيْ بن حاتِم :« ما منكم إلاّ وسيكَلِّمُه ربّه ليس بيْنَه وبينه تُرجُمان ولا حجاب

يحجبُه » [32] فماذا أعددنا لذلك الموقف ؟نسأل اللّه سبحانه وتعالى التَّوفيق والثَّبات والسَّداد .

- قال عبدالرَّحمن السِّعدي :

بِـــاللهِ دَعْـــوَاتَ الخَلائِــــقِ كُـلـــــهَا	***	خَـوْفـــا علَـــى الإِيمَـــانِ مِـــنْ نقصَـــانِ

وهذه ندبَة من المؤلِّف –رحمه اللّه تعالى- لمن أراد الرِّعايَة الحقيقيَّة والمنزلة الرَّفِيعَة لنفسِه في الدُّنيا والآخرة أن يتعلَّق باللّه سبحانه وتعالى وحده خوفاً ورغبَةً ورهبَة ،أن لا يختَرم إيمانه شيءٌ من النَّقْص .

فمن أعظم صفات السَّائِرين إلى اللّه والدّار الآخرة أهل السَّعادة أنَّهم أعظم ما يخافون منه اختِرام الإيمان ؛نقص الإيمان ،ما يخافون أن يذهب المال ،ولا يخافون أن يذهب الولد ،ولا أن يذهب الجاه ،ولا

32- رواه البخاري في [صحيحه (7443)] ،ومسلم في [صحيحه (1016)] باختلاف يسير .

الكرسي ولا المنصِبْ ،ولا أيّ شيء من متاع الدّنيا الزّائِلَ ،ولكن أعظم ما يخافون منه هو زوال هذا الإيمان !

ولهذا كان من تحقيق الإيمان أن يكره أن يعود في الكُفر بعد أن أنقذه اللّه منه كما يكره أن يُقْذَف في النّار ،أعظم شيء عنده الإيمان ؛أن يخرج من هذه الدّنيا بإيمانه كاملاً كما يُحبُّه ربُّه سبحانه وتعالى له .

ومن كان هذا حاله وهذه نيَتُه ،فلا تسأل عن جدِّه واجتهادِه ،وعن صبره ومُصابَرَتِه ،وعن –كذلك- مسابقَتِه ومسارعتِه ،ومثابرَتِه ومداومتِه ،وغير ذلك من صفات الكمال وخِصال الجلال التي يُوفِّق اللّه ويخُصّ اللّه–عز وجلّ- بها أهل الإيمان ،والمُوَفَّق من وفَّقَهُ اللّه سبحانه وتعالى .

ويظهر ذلك في حالِه ومقالِه ،وظاهره وباطِنِه ،ومواقفِه وأحوالِه حتّى تكون له من عاجل بشرى المؤمن ما هي سابقَة ثناء وذِكر له في الدُّنيا فضلاً عن الآخرة ،وكما قال النبي ﷺ :« أنتم شهداء اللّه على أرضه » [33] حين مرَّت جنازة فذكروها بخير ،ومرَّت أخرى فذكروها بغير ذلك ،كيف تذكر بخير إلا وكانت حريص على خير ،وكيف تُذكر بغير ذلك إلاّ وكانت زاهدة في الخير ،فمن حرصَ على كمال الإيمان وجد من شواهد الحقّ وبراهين الصِّدق ما هو بإذن اللّه عاجل

33- رواه البخاري في [صحيحه (1367)] ،ومسلم في [صحيحه (949)] عن أنس بن مالك .

بشرى المؤمن، وكما قال من العلماء[34]: «للّه جنَّة في الدُّنيا من دخلها دخل جنَّة اللّه في الآخرة، وللّه ناراً في الدُّنيا من دخلها دخل نار اللّه في الآخرة » فجنّته في الدّنيا العلم النّافع والعمل الصَّالِح، والصِّراط المستقيم والدِّين القويم، وطلب مرضاة ربّ العالمين .

ونار اللّه –عز وجلّ- في الدّنيا تلك الشَّهوات والشُّبُهات، وتلك القاذورات والمستنقعات التي يلوغُ فيها من يلُوغ، ويرتَع فيها من يرتَع إيثاراً لهذه الدُّنيا الفانِيَة على الآخرة الباقيَّة، وقد قال سبحانه وتعالى ﴿ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧ ﴾ [الأعلى: 16-17] .

- **قال** عبدالرَّحمن السِّعدي :

عَزَفُـوا الْقُلُــوبَ عَــنِ الشَّوَاغِــلِ كُلِّهَــا	***	قَــدْ فَرَّغُوهَــا مِــنْ سِــوَى الرَّحْمَــٰنِ
حَرَكَـــاتُهُمْ وَهُمُـــومُهُمْ وَعُزُومُهُـــمْ	***	لِلّهِ، لَا لِلْخَلْـــــقِ وَالشَّـــــيْطَانِ

وهذه صفات أخرى من صفات أهل السَّعادة السَّائِرين إلى اللّه سبحانه وتعالى والدّار الآخرة؛ أنّهم عزفوا قُلُوبَهم عن الشَّواغِل كلِّها، نسأل اللّه سبحانه وتعالى أن يجعلنا من هؤلاء « عزَفُوا القُلُوب عن الشَّواغِل كلِّها قد فرغوها من سوى الرَّحمن » .

فمن صِفاتِهم أنَّهُم فرَّغُوا قُلُوبَهُم عن جميع ما يُشْغِل عن اللّه سبحانه وتعالى، ويُبْعِد عن رضَاه، وهذا -كما قال من أهل العلم-

34- كشيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه اللّه- كما نقله عنه تلميذه ابن القيم في [مدارج السّالكين (452/1)] .

حقيقة الزهد ،فحقيقة الزّهد هو تفريغ القلوب عمّا يُشْغِل عن اللّه سبحانه وتعالى بتركِ ما لا ينفع في الآخرة وما يضُرّ في الدّنيا ،وبه يَعلَم أنَّ الهمَّة العالِيَة التي ينبغي أن يُحرَصْ هو هذا ؛تفريغ القلوب عمّا يُشْغِل عن اللّه سبحانه وتعالى بترك ما لا ينفع في الآخرة فضلاً عمّا يضُرّ ،وتركِ ما يضُرّ في الدُّنيا .

وبه يُعلَم أنَّهُ ليس الزّهد بتركِ ما ينتَفِع به الإنسان في الدّنيا ،ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة –رحمه اللّه- :« فتركُ ما ينفَع ليس بزُهْدِ بل هو حُمقْ » [35] ،وكما قال سفيان الثَّوري –رحمه اللّه تعالى- - كذلك- في بيان الزّهد :« أنَّ الزّهد إنَّما هو بترك طول الأمل ،وليس هو بأكلِ الغليظ ولِبْس الخَشِنْ » [36] ،وقد غَلِطَ الكثير ممَّن ينتسِب إلى الزّهد فظنّوا أنَّ الزُّهد هو بتركِ تلك المظاهِر ممّا ينفَع الإنسان في الدُّنيا ،فحَرصُوا على لِبْس الغَلِيظ والصُّوف وترك الوثير والنّافِع ،وأكل الغليظ ،وظنُّوا أنَّهُم بهذا صارُوا من الزَّاهِدين ،بينما حقيقة الزُّهد هو تفريغُ القُلوب عمّا يُشْغِل عن اللّه سبحانه وتعالى ويُبْعِد عن رضَاه ،بتركِ ما لا ينفع في الآخرة ومن باب أولى ما يضُرّ ،وما يضُرُّ في الدّنيا ،فإن كان ممّا ينفَع في الآخرة الاستِعانَة ببعض المباحات ،فإذن ليس هذا ممّا يُنافي الزّهد ،ولهذا كان نبيُّنا –عليه الصَّلاة والسَّلام- إمام الزّاهدين وقد أكلَ من اللَّحْم ،كما ربط على بطنِه الحصَّى والحجر والحجريْن –عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام- .

35- انظر [مجموع الفتاوى (28/11)] .

36- انظر [المصنف لابن أبي شيبة (101/20)] .

وبه نعرف أنَّ الزُّهد أن يشكُرَ العبْدُ ربَّهُ عند العطاء ،ويَصْبر عند البلاء ،هذا هو الزُّهد !وليس معناه أن يترُك ما يأتيه من عطاء ،ويتعمَّد تتبُّع البلاء ،ففِعلُ ذلك –كما قال شيخ الإسلام- هو الحُمق ،لم يكُن هذا من سُنَّة الأنبياء والمرسَلِين –عليهم الصَّلاة والسَّلام- ،بل الأنبياء والمرسَلِين –عليهم الصَّلاة والسَّلام- كانوا يُفرِّغُون قُلُوبَهُم عن الشَّواغِل عن اللّه ،وعمّا يُبْعِد عن رضَاه ،ويتركون ما لا ينفع في الآخرة ومن باب أولى ما يضُرّ ويضُرّ في الدُّنيا ،فإن كان شيء من الدُّنيا ينفع وتوصَّلُوا إليه بطريقِ حَلال ومُبَاح استعانوا به في مرضات اللّه سبحانه وتعالى ،وهذا كثير في حياة الأنبياء والرُّسُل وإمامنا وقدوتنا نبيُّنا محمَّد ﷺ .

وقولُهُ –رحمه اللّه تعالى- :« قد فرَّغُوها من سوى الرَّحمن » يعني :قُلُوبُهم فارغة ؛بمعنى :غير متعلِّقَة بغير اللّه سبحانه وتعالى الرَّحمن ،فلا تَجِد فيها مكان لغير اللّه .

ولهذا قال النبيّ ﷺ :« واللّه لا يُؤْمِن أحدكم حتّى أكون أحَبّ إليه من مالِه ونفسِه وأهلِهِ والنّاس أجمعين » [37] ،فإذا تفرَّغ القلب في مرضات اللّه وحُبِّهِ وحُبِّ ما يُحِبُّهُ فعند ذلك حصلَ المقصود من الالتفات إلى اللّه وحده سبحانه وتعالى وعدم مزاحمَة غيره له –جلّ وعلا- .

وإذا كان هذا في القلب فمن باب أولى في الأقوال والأفعال والأحوال .

37- رواه البخاري في [صحيحه (15)] ،ومسلم في [صحيحه (44)] عن أنس بن مالك .

وقوله –رحمه الله- : « حركاتُهُم وهمومُهم وعُزومُهم لله لا للخلق والشَّيْطان » يعني : لكمال تفرُّغ قلوبهم عن جميع ما يُشْغِل عن الله ، وبُعدِهم عمّا يُبْعِد عن رضاه ، صارَت حركاتُهم وهمومُهُم وعزومُهم لله ، وهذا بأمرَيْن :

- **الأمر الأوَّل : بحِرْصِهم وشِدَّة ما يُبَرْهِن صِدْقَهم في ذلك .**
- **والأمر الثّاني –وهو العظيم- : توفيق الله سبحانه وتعالى لهم**

، حتّى يُلْهَمُون التَّوفيق في الحركات وفي الهُموم وفي العُزوم فضلاً عن الأقوال والأفعال والأحوال .

ولهذا ، تجد العبد كلَّما كمُلَ تعلُّقَهُ بربِّه سبحانه وتعالى كمُلَ توفيق ربَّهُ سبحانه وتعالى له ، كما قال الله –عز وجلّ- ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت: 69] **، وكما قال سبحانه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨ ﴾** [النحل: 128] **، وغير ذلك من الآيات والأدلّة الكثيرة التي تدُلّ على هذا المعنى العظيم .**

وقولُه : « لا للخلق والشَّيْطان » يعني : لم يُزاحِم ذلك في حركة وهمّ وعَزْم فضلاً عن قول وفِعْل وحال شيء ممَّا هو للخلق ، أو من باب أولى للشَّيْطان .

- **قال عبدالرَّحمن السِّعدي :**

نِعْـمَ الرَّفِيـقُ لِطَالِـبِ السُّـبُلِ الَّتِـي *** تُفْضِـي إِلَـى الخَـيْرَاتِ وَالْإِحْسَـانِ

ثمّ ختمَ -رحمه الله- بهذا البيت الأخير، ومعناه: من أعظم صِفاتِهم -كذلك- حِرْصُهُم على متابعَة أهل الرُّفْقَة الصَّالِحة، والسَّبيل الحَسَن؛ وهم النبيُّون والصِّدِّيقُون والشُّهَداء والصَّالِحُون، وحسُنَ أولئِك رفيقا، من أمرَنا الله -عز وجلّ- بالدّعاء بمرافقَتِهم في كلِّ صلاة وفي كلِّ ركعَة، فنحنُ نقول ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾[الفاتحة: 6-7]**، ومن هم الذين أنعمَ الله عليهم؟ هم الذين ذُكِروا في سورة النّساء** ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝٦٩ ﴾[النساء: 69]**، وكما قال الله -عز وجلّ- في الآية الأخرى بعد أن ذكر أكثر من عشرين نبيّ ورسول، قال** ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾[الأنعام: 90]**، وقال في حقّ نبيِّه ورسوله -عليه الصّلاة والسّلام-** ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ۝٢١ ﴾[الأحزاب: 21]**، فمن أعظم صِفاتِهم (أي: أهل السّعادة والسّائِرين إلى الله والدّار الآخِرَة) حِرْصُهُم بلسان الحال والمقال والقول والعمل والحال على مرافقة النبيّين والصِّدّيقين والشُّهداء والصَّالِحين، وعند ذلك يُفْهَم قول النبيّ ﷺ: « المرء مع من أحبّ يوم القيامة » [38]، ليس مع من أحبّ بادِّعاء اللِّسان، ولكن بصِدق القلب، وبُرْهان الجوارح، لأنّك إذا**

38- رواه البخاري في [صحيحه (6168)]، ومسلم في [صحيحه (42640)] عن عبدالله بن مسعود .

أحبَبْتَ تابعت ،ولهذا قال اللّه –عز وجلّ- ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١ ﴾[آل عمران: 31] .

ونسأل اللّه سبحانه وتعالى بأسمائِهِ الحُسْنَى وصِفاتِه العُلَى أن لا يَحرمنا خيرَ ما عندهُ بشرِّ ما عندنا ،وألاّ يجعلَنا من أهل التَّقْصِير والعِصْيان ،وأن يجعلنا من أهل الإخلاص والطّاعة وطلبِ رضاه سبحانه وتعالى ،وأن يُوفِّقَنا وإيّاكم وسائِر المسلمين لِما فيه الخيْر في دُنيانا وأُخرانا ،وأن يجعلنا هداة مهتدين غير ضالّين ولا مُضِلِّين .

وبهذا القدر نكتفي ،وصلّى اللّه وسلَّم على نبيِّنا محمّد وعلى آلِه وصحبه وسلَّم .